مرسومُ الطاعة

حسب الله يحيى ❖

ما الذي يدفعكَ إلى أن تَفعل كلَّ هذا؟

ما الذي يجعلكَ تقبل بأشياءَ كثيرةٍ تعافُها نفسُك، وينفيها عقلُك، وتصدُّ عنها كلُّ حواسّك؟

هل فقدتَ الذاكرةَ والإحساس، وتعطّلتْ إنسانيّتُك؟ هل صرتَ مجرّد قاربٍ يَسْهل على الآخرين تحريكُه لإيصالهم إلى الضفّة الثانية؟

التحقتَ بالجنديّة، وحاربتَ طوال أعوامٍ مريرةٍ مليئةٍ بالحزن والأسى والترقّب. شَمَمْتَ مئات الجثث، وفيها مَنْ هو صديقٌ لك، ومَنْ هو عدوّ.

ولكَ أنتَ كانت تتوجّه الأوامرُ دائمًا لأنّك اعتدْتَ الطاعةَ.. وكنتَ تحسب أنّ الجنديّة شجاعةٌ ونظامٌ وطاعة، حتى خُيّل إلى مَنْ حولك أنّ الطاعةَ جزءٌ أساسٌ من شخصيّتك، وأنّ الشجاعة والنظام يذوبان في الطاعة التي صرتَ تُعرف بها، حتى سمّاكَ الرفاقُ «الجنديّ نَعَمْ.»

غير أنّكَ في كلّ مرة تواجهُ فيها نفسكَ ترى أنّك تسير على الطريق الخطإ، وأنّ عليكَ أن تغيّر مسارَ حياتك. ثم تنفلت من هذا القرار.. ولا تعرف كيف تبرِّر لنفسك هذا الانفلات. لقد جعل منك والدُك إنساناً لا يعرف سوى الإجابة بنعم؛ أما لا.. فلا وجودَ لها في قاموس حياتك.

ألم تكن مثيرًا للضحك عندما التمستَ العذرَ من زملائك للعودة إلى الفندق قبل الساعة الثامنة مساءً من حفلٍ ساهرٍ أضيئت فيه أنوارُ لندن كلّها.. حين كنتَ هناك.. في أعوام شبابك، وحين ذكّرك أحدُ زملائك بأنّك في لندن لا في قريتك، فيما ذكّرك الآخرُ بأنّ أباك الذي ألزمك بالعودة إلى منزلك قبل الثامنة قد مات منذ سنوات بعيدة.. ولا وجود لرقيب يَحْمل للموتى خبرَ عدم طاعة الأبناء لأوامرهم؟ يومَها قلتَ: «أعرف.. أعرفُ كلَّ هذا.. ولكني اعتدتُ طاعةَ أبي حيّاً أو ميتًا.» وسألكَ زميلٌ آخر: «أأنت مقتنعٌ بهذا، وبهذه الطاعة التي لا مبرّر لها؟» أجبتَه: «قناعتي غيرُ مهمّة، المهمّ أنّني لا أريد أن أكون قلقًا وأنا أتخلّى عن طاعة أبي.»

وضحك منكَ الجميعُ، ولم تبالِ بالضحكات التي راحت تلاحقكَ.

صِباكَ هذا قادكَ إلى أن تصبح شابّاً مطيعًا، يستسلم للأوامر. ثمّ تحوّلت الطاعةُ إلى خضوع واستسلام. ووجدتَ نفسَك تتحوّل من جنديّ جاء لخدمة الوطن والحفاظ على أمنه واستقلاله من أيّ عدوانٍ أجنبيّ، إلى خادم مطيعٍ لأصغر ضابط: تقوم بغسل ملابسه وإعدادِ طعامه وصبغ حذائه ـ شرطَ أن يكون الطلاءُ يحمل بريقًا. وأطلقوا عليك اسمَ «مراسل».. وصرتَ تقوم بخدمة السيّدة زوجةِ الضابط، وأطفالِ الضابط. وبدأتَ تسألَ نفسك:

ـ أتعني كلُّ هذه الخدمة.. خدمةَ الوطن؟

كنتَ تتقدّم الضابطَ عندما تشتعل الحربُ، فيما تمشي وراء الضابط عندما يعمّ السلام!

وسألتَ نفسك: أأنا مواطنٌ من الدرجة الثانية؟ وهل تختلف دماءُ الضابط عن دمي؟!

هل يَمْلك رأسًا لا يَمْلكه أمثالي !؟

لماذا الرواتبُ والنياشينُ والمكافآتُ لهم... ولنا الموتُ، أوّلُ الموت، كأنما وَلدَتْنا أمّهاتُنا حتى نموتَ على عجل، ومن عظامنا تُصنع حياةٌ مرفّهةٌ للآخرين كي يكونوا في سعادة دائمة؟!

أنتَ تحمل شهادةً جامعيّة، وأنتَ واسعُ الاطّلاع، تعرف حقّكَ مثلما تعرف حقوقَ الآخرين.. ويقول لك بعضُ زملائك:

ـ ادفعْ.. ادفعْ يا أخي لترتاح!

كنتَ تعرف زملاءَ يدفعون الكثيرَ من المال إلى الضبّاط. كنتَ تعرف أنّ هؤلاء الزملاء لا يَمْلكون رغيفًا يزيد عن حاجتهم؛ ومع ذلك يُكرمون ضبّاطهم، أو يُكرَهون على أداء هذا الكرم الإلزاميّ حتى يكسبوا الراحةَ لأنفسهم، ويمتّعوا أنفسَهم بإجازاتٍ مستمرّة، ويُبعدوا عنهم أذى الحرب.. والموت المحتوم أو المؤجّل.

❖ ـ كاتب من العراق.

وكنتَ ترفض أن تدفع، لأنّك لا تملك أصلاً ما يُمْكن أن تدفعه. ولو امتلكتَ ما تدفع، لرَفَضْتَ الدفعَ إلى مَن لا يستحقّ... لأنَّ الأمر يشكّل بالنسبة إليك حالةً من الابتزاز، تَرْفضها وتعافها نفسُكَ الأبيّة.

ولكن... هل مثلكَ يعرف معنًى لـ «الإباء».. أنت الجامعيّ.. والمثقّف.. والجنديّ الذي جاء ليخدمَ الوطنَ، ويؤدّي مهمّةً رذيلةً في طلاء الأحذية، وتنظيفِ قذاراتِ أطفالِ ذلك الضابط، وانتظارِ زوجته عندما تكون في صالونٍ للتجميل في سيّارةٍ عسكريّةٍ مسْدلةِ الستائر؟!

لقد صادروا رأيكَ منذ اليوم الأوّل الذي دخلتَ فيه بابَ المعسكر. وحين قلتَ ذلك لرفاقك، زيّنوه لكَ، وقالوا: «لقد اتّفقنا على أنّ هذا الجيشَ لهم، لا يَسُوده إلاّ الفكرُ الواحد، والمبدأُ الواحد، والإيعازُ الواحد.» وحين سألتَ رفاقَكَ: «هل وافقتم على هذا الإجراء؟» هزّوا رؤوسَهم إيجابًا. وتماديتَ في السؤال: «كيف يحصل هذا؟ هل الأفكار والمبادئ كالثوب أرتديه، ثم أخلعُه عن جسدي وقتما أشاء؟» وجاءك الجوابُ صارمًا:

ـ رفيق... لا تناقشْ، أنت منذ اليوم لا علاقةَ لكَ بنا.

وأجبتَهم بإصرار:

ـ أنا لا أنتمي إلى أشخاص.. أنا منتمٍ إلى أفكار.

وسألكَ أحدهم: وما الفرق؟

وضحكتَ منه.. ضحكتَ كثيرًا... وطردوكَ فيما كنتَ تقول:

ـ الأشخاصُ إلى زوال... أما الأفكار فهي الباقية!

وخرجتَ، وفي قلبك أشياءُ كثيرةٌ تتمزّق، وفي رأسكَ صراعٌ يقاتلك.

وحاولتَ أن تتأقلم. قلتَ: «سأكونُ ضفدعةً تلوِّن جلدَها حسبَ المكان الذي تكون فيه. سأحتفظ بما في داخلي، وأكتمه عن الآخرين.» وقلتَ: «هل أصْلح أن أكون سحليّةً؟ هل أكون دودةَ قزٍّ تتظاهر بالموت حين يداهمها خطرٌ ما، مع أنّها تعرف أنّها تقطر الحريرَ، تنسجه ليصبح رداءَ 'كرام' الناس؟»

وسألتَ: ما معنى أن أكونَ كذلك؟ وتجيب عن سؤالك بنفسك، وتقوم بتنفيذ «حكمةٍ» لا تؤْمن بها، وتدرك أنّ إطاعةَ الخاطئ خطأٌ مضاعفٌ... حتى صارت الطاعةُ ثوبَكَ ووجودَكَ معًا: ثوبًا تَخْلعه أمام ذاتك حتى تحترمَ نفسَك، ووجودًا آخرَ تحقّقه بالطاعة لسواك حتى تحتفظ بحياتك.

أيرضيكَ هذا؟ أن تَحتلّ أرضَ سواكَ بقوة السلاح وتَعدّ الأمرَ... وطنيّةً؟ أتقول مبادئُكَ بهذا؟ أتَعدّ كلَّ هذا القتل والنهب والسلب عملاً إنسانياً؟

اختلطت المفاهيمُ والأوامر، الطاعةُ والتمرّد، القبولُ والرفض، الحقيقةُ والزيف. قُلِبتْ كلُّ الأشياء. فهل عليكَ الآن أن تبقى ذلك الجنديَّ المطيع؟

الطاعة انتحارٌ، وأنت تحبّ الحياةَ. والطاعةُ لعنةٌ تلاحقك، وتلاحق أبناءكَ من بعدك. والطاعةُ ذلّ، وأنت لا تريد أن تحيط نفسَكَ بالذلّ مدى الحياة.

تمرَّدْ إذن! التمرّد موتٌ... اخترِ الموتَ.... حين يكون هناك اختيار. واخترتَ الموتَ بديلاً من طاعةٍ مذلّة. بات الموتُ أفضلَ بكثير من القبول بها.

ثم أتاك نداءٌ لاحق: الموت لا ينالكَ وحدَك... الموت يلاحق كلَّ ما هو متعلّق بصلبك، بجذورك، بأنفاسك. السيف سيطاولُ الجميعَ، مِنْ أمّك إلى زوجتك إلى أصغر أبنائك. والآن.... عليكَ أن تختار!

ومع ذلك تختار أعذبَ الموت... لكَ ولمن تحبّ... لأعزّ من تحبّ. تمرّدْ! وفي مرآة نفسك سترى أنّك تكبر. تتمرّد... مع أنّ حولك أنينًا وتوسّلاً ورجاءً: «عُد إلى الطاعة من أجلنا نحن،» يقول أهلُك... وتجيبهم: «من أجلكم أتمرّد... أهرب من الجنديّة!»

ـ سيقتلوننا جميعًا!

ـ فليفعلوا!

ـ ما أشدَّ أنانيَّتَك!

وتواجه ذاتَك... تسألُها، تحاورها: «من هو الأنانيُّ فينا؟» وترى أنّك أولُ مَن يفتدي روحَه كي تحيا أرواحُ الآخرين بعزٍّ ولا تحيا بذلّ.

تتّخذ القرار... تؤكّد تمرّدَك.. وتُعدّ نفسَك لاحتمالِ الأذى.. لاحتمالِ الموت.

ويلاحقونك في كلّ مكان. يقومون بالتفتيش عنكَ في عمق الليل... يأخذون أمّكَ وأطفالَك وهم في عزّ نومهم.... بعد أنْ أعددتَ لنفسكَ ولأختيكَ وزوجتكَ مكانًا يُمْكنك فيه قطعُ أنفاسهنَّ قبل أن يُكتشفَ أمرُهنَّ؛ فالموت خيارٌ أفضلُ من اقتيادهنَّ إلى فضيحة السجن.

ولم تحتمل.. فأنت أمام خيار جديد: إمّا أن تستسلمَ لهم، أو تقومَ بعمليّةِ خنق لأختيك البكْرين وزوجتك البهيّة، أو تدعهم يأخذون أمّك وأطفالك ليكونوا فديةً لك! أمرُك لم يُكتشفْ، وأمّك لم تخْبرهم عن وجودك، وأطفالُكَ لايعرفون عن الأمر شيئًا، وأنفاسُ الإناث قريبةٌ منك. قرّرْ على عجل!

وتخرجُ إليهم، تمدّ يديكَ إلى أصفادهم الأوتوماتيكيّة، فيعتصرونهما. يقتادونكَ أمام صرخات النسوة وأنينهنّ وأوجاعِ الأطفال... وأحداقٍ مفتوحةٍ متجمّعةٍ من الجيران... أحداقٍ كانت تستنكر بصمتٍ بليغ.

ولأول مرة لم تكن متفائلاً بالصباح. اقتادوك إلى مكان يسوده البياضُ، والآلةُ الحادّةُ تتربّص بك، كأنّما تتشهّى الإصغاءَ إلى ما تَهْمس به الآذانُ للآذان... وتريد قطعَ الهمس. كان الطبيبُ الجالس أمامك لا يريد أن يحدِّق في عينيك. كنتَ تراه، تزرع عينيكَ في عينيه، وهو يُبْعد عينيه عن عينيك. وفوجئتَ بالطبيب يمدّ يدَه إلى جانب يدك. وخَفَقَ قلبُكَ. كنتَ تعتقد أنّه يريد أن يجرّك إليه، حتى تكون أذنُكَ قريبةً من آلته الحادّة.

أحسستَ بالاختناق والألم والتلاشي، وانتظرتَ. كدتَ تصرخ هلعًا. وخاطبكَ الرجلُ الذي فيك، خاطبك الوعيُ والإرادةُ والحزمُ التي تريد أن تقوى على الهلع.

استحضرتَ كلَّ شجاعتك، وضغطتَ على شفتيك حتى أدميْتَهما. وحين لامَسَتْ يدٌ يدَك، أحسستَ بدفءٍ قريبٍ منكَ، أليفٍ إلى قلبكَ وحواسّك وعقلك. وعجبتَ للأمر: فمن أين يأتي هذا الدفءُ في هذه اللحظات الحرجة؟ وماذا يعني هذا الدفءُ الحميمُ الآن... الآن بالذات؟

أفاقت كلُّ قطرة في دمك، كلُّ خليّة في جسدك. صارت أعصابُكَ ووعيُكَ وروحُكَ عيونًا ترى وآذانًا تسمع. صار الكون كلّه ممتلئًا بالبهاء والمسرّات... حين رأيتَ أصابعَ الطبيب تتداخل مع أصابعك وتعانقها... فيما كان الطبيبُ ذاتُه يهمس في أذنك:

ـ لا تخفْ... لن أتركَكَ وحيدًا... لن أكونَ جزّارًا فأقطعَ أذنَكَ... هناك جزّارٌ آخرُ ربما يَقْطع آذاننا معًا... أو يكون ثالثنا...

وضجَّ الهمسُ... لامس الجميعُ آذانَهم... والهمسُ تعلو دفقاتُه، ليضجّ به المكانُ الناصعُ البياض.

بغداد